الأعـــلام الجغرافيـــة العربيـــة

للأستاذ الدكتور فؤاد فخر الدين

الأعلام جمع « علم » وهى شخصيات بارزة كأن على رؤوسها النار ، يشار إليها بالبنان ، ظهرت فى الوجود حاملة لواء الشهرة ، بما لها من شجاعة أو بطولة أو مهارة فى فن من الفنون أو علم من العلوم أو مهنة من المهن أو عمل من الأعمال أو أدب من الآداب شعرا كان أو نثرا ، لها أثر يحكى عنه فى المجتمع أو يبقى مع الأيام لا يزول ولا يذهب أدراج الرياح ، ولكنه يرمز على الحضارة من الحضارات أو مدنية من المدنيات التى يتباهى بها الإنسان بل الأمم فى إظهار كيانها التقدمى ووجودها القومى أو تاريخها الإنسانى أمام العالم الذى يخاطب الناس بفخر عن مميزاته الخاصة يمتاز بها ، ويتميز عن غيره من أبناء الجيل المتقدم .

والجغرافيا كلمة مأخوذة من كلمة أجنبية ، وهى علم يتصل بأديم الأرض والثرى ومساحتها وما يحيط بها من مواقع الحياة النامية ، والتضاريس والجبال والأوتاد ، والبراكين والسهول ، والوديان والأحراش ، والحاصلات والمنتجات الطبيعية والمائية والجوية ، وما يواجهها من أجواء وأنواء ، وكل فى حيز قُرِّر مكانه ومقره وموقعه حتى لا يتعدى على غيره ، فهو فى وطن له حدوده الطبيعية وروحه القومية ، ولغته الوطنية . فالأرض منطقة يابسة قسمت إلى أوطان ففى كل وطن جنس من البشر ، له حريته وحقه الأساسى يدافع عنه بكل ما لديه من قوة مادية ومعنوية .

والعرب جنس من هذا البشر ، عاشوا منذ الجاهلية الأولى فى شبه الجزيرة العربية ، وعرفوا كقوم لهم تاريخ ولا سيما فى الأدب شعره ونثره . فالفصاحة والبلاغة ميزة خاصة بهم ، وهما سلاح خاص بهم فى إشعال نار الحماس فى الحروب والخطوب وإشعال نار الحب فى قلوب النساء الفاتنات العاريات الكاسيات ، فاللغة مادة غزيرة سابحة فى بحر لجى ملآى باللآلى والمرجان والأسماك ذات الألوان ، فصارت اللغة وسيلة التخاطب فى كل مسائل الحياة تقرب الفهم والود والوئام حتى

أصبحت اللغة العربية لغة سائدة قائدة منذ أن كلم الله آدم عليه السلام وعلمه الأسماء كلها ، كميزة خاصة بالإنسان فلا يفهمها الملائكة واعترفوا بهذا العجز اعترافا بمعنى سمو المخلوق الإنسانى .

هذه الميزة الخاصة باللغة العربية استمر وجودها لغة دين قويم دين الله الوحيد ، ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين .

انتقلت اللغة العربية مع الإسلام إلى قومية أخرى أكثر فعالية ومفعولية وأوسع مجالا وساحة فى الوطنية ، إذ كل البلاد الإسلامية وطن للمسلم ، ولا يعرف الإسلام ولا يعترف بالوطنية الضيقة المقيدة بجنس معين من البشر والدين أقوى من صلة الدم ، وأقرب من القرابة النسبية ، والسلالة الجنسية ، ولا سيما أصبحت اللغة العربية إحدى مقومات القومية الإسلامية الخمس ، إذ نزل القرآن بها واختار الله واصطفى الرسول صلى الله عليه وسلم محمداً ممن يتكلم بها ، ولا شك أن الله جعل هذه اللغة رابطة دينية قومية ، فى أخوة وطنية، وفى وحدة شعورية لبناء مجتمع إسلامى فى صورة موحدة الجوانب ، واللسان أقوى هذه الجوانب فالمرء بأصغريه لسانه وقلبه ، إذ اللسان آلة التعبير والتحبير والتصوير حتى قال الفرنسيون :

(il faut tourner sa langue sept fois dans sa bouche avant de parler) .

أى يجب أن تلف لسانك سبع مرات فى فمك قبل أن تتفوه بكلمة ، وحيث هذه اللغة من الله كلفة دينية للإسلام ، بل هى لغته الخاصة به وفضلها على سائر اللغات فعلينا أن نرجعها اليه كحقه ومميزاته كما يقول الفرنسيون فى مثلهم : (il faut rendre à Céser ce qui appertient à Céser,et à Dieu ce quiest à Dieu) .

أعط لقيصر ما لقيصر وأعط لله ما لله .

وقد حدد الله مهمة القرآن فى توحيد الصفوف ، وتوجيه القلوب . وتكوين العقول والأفكار ، وتأليف أمة ذات صيغة خاصة ، ومقومات مميزة عن غيرها فقال سبحانه : « إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » (يوسف ٢)، وقال : « وكذلك أنزلناه حُكْمًا عَربيا ، وَلَئِن اتبعتَ أهواءهم بعد ما جاءك من العِلْمِ مَالكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍ ولا وَاقٍ » (الرعد ٣٧) ، وقال : « وكذلِكَ أنزلناه قرآنا عربيا وصَرَّفْنا فيه مِنَ الوعيدِ لعلهم يتقون أو يُحْدِثُ لهم ذِكْراً . فتعالى اللهُ الملكُ الحقُ ،

ولاتَعْـجَلْ بالقـرآنِ مِنْ قَـبْلِ أن يُقْـضَى إليكَ وَحْيُهُ، وقل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ، ولقد عَهِدْنا إلى آدمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِىَ ولم نَجِدْ له عَزْمًا » (طه ١١٣ - ١١٥) وقال تعالى « قُرآنا عربيًا غَيرَ ذِى عِوَجٍ لعلهمْ يَتَّقون « (الزمر ٢٨) ، وغير ذلك من الآيات المبينات حاكية عن مهمة القرآن فى تكوين أمة إسلامية غير ذات عوج ، وهى رحمة للعالمين ، وخير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله .

والإسلام غير العرب ، ولم يغير اللغة العربية وأن رفعها إلى أسمى اللغات قيمة وقدرا ، ونحن فى الواقع مجمع لغة القران لسان الإسلام ، إذا اتسعت مهمتها ، ويجب أن نرفع من شأنها فى الوحدة القومية التى بها نوحد الخطط السياسية ، والشئون الاقتصادية ، والمشاكل الثقافية ، والاختلافات المذهبية ونؤدى مهمتنا العليا فى الرسالة الإلاهية حتى تجد إسرائيل سم حاجتها فى تغيير جامعة الدول العربية الى جامعة دول الشرق الأوسط فالأولى بنا أن نجعلها جامعة الدول الإسلامية ، وهذا المجمع مجمع اللغة الإسلامية لنسد كل فراغ يمكن أن تدخل منها بجانب أننا نقوى صفوفنا القومية وروحنا الإسلامية ، ونرقى مشاعرنا اللغوية ، وننظر إلى سياسة أبعد مدى وأكثر فعالية ومفعولية ، فلا نضع العربة خلف الحصان كما يقول المثل الفرنسى : (Mettre la charrue devant les boeufs) .

ومميزات العرب فى الجاهلية لم تصل بعد إلى درجة التقدم العلمى وإلى الرقى الأخلاقى ، ولم تمتد حدودهم عن المناطق العربية المجاورة فى تجارة ما وللحصول على الضروريات الملحة ، ولم تكن لهم رسالة واسعة النطاق بل هم قوم رحل للبحث عن قوت يومهم حول الصحراء القاحلة والفيافى النائية ، وعلومهم لم تفدهم فى أداء هذه المهمة الضيقة ولا سيما العداوة بينهم كانت قبلية وشعوبية وعزة قومية ، وعلومهم لا تتجاوز حدود الاحتياجات المطلوبة فكانت علومهم بدائية للتغلب على الطبيعة القاسية والعوارض النفسية من الأهواء فى صورة ضغائن للأخذ بالثأر ، فأتقنوا علم القيافة والنجوم وغيرها من العلوم التى تواجه الطبيعة القاسية وتتغلب على الظروف المحيطة ، وعلى الطبائع الإنسانية الشريرة ، فتلك العلوم خاصة بمنطقة لم تخرج عن حيزها الضيق ، فالجهل صفة عدم

إدراك الطبيعة الإنسانية الشاملة ، فالعرب فى الجاهلية لم يخرجوا بعقولهم فى معالجة الأمور ، فسلاحهم لم يكن العلوم الفعلية بمشاعرها الإنسانية بل هى علوم طبيعية لمواجهة القوة كقانون الغاب وأسلوب الوحوش .

فلا يمكن أن نقول بملء الفيه إن هناك جغرافيين من العرب ولا سيما الأعلام منهم ، فإن وجد شخص ما فلم يكن مقياسا فالندرة شذوذ لا يقاس عليه : « وما شذ فعلى نقل قُصِر » كما يقول ابن مالك فى ألفيته ، وهو أنأى من الكواكب ، وأبعد من مناط الثريا وبيض الأنوق .

الإسلام هو الكمال المطلق ، وهذا ليس تعبيرا رمزيا ، بل هو تعبير إلهى شامل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إذ قال تعالى : « ويَمْحُ اللهُ الباطلَ ويحقُ الحقَ بكلمتِهِ » (الشورى٢٤) ، ما جاء الإسلام كدين الله الإ ليعطى للعلم قدره ، وللعقل مكانه وللتفكير صورته فى لون من الاجتهاد ، وفى وضع العلماء ورثة الأنبياء ، وهل يستوى الأعمى والبصير ، والجاهل والعالم المنير ، فكل فى فلك يسبحون .

لا شك أن العلماء فى جميع العلوم ظهروا مع الإسلام ، فالأشهر الإسلامية قمرية ، والقمر يظهر فى الليالى الليلاء ، فينير الطريق لمن ضل السبيل ، فجعلت اللغة العربية القمر مذكرا لأنه حارس ذلك الليل المخيف الذى يهلك الإنسان خوفا ورعبا من الأخطار المهددة لسلامة الإنسان وأمنه حتى يصل إلى هدفه تحت حراسة دين قويم فى عدالته ومساواته وإعطائه الحقوق دون نقص ولا خلل ولأن الإسلام شامل كامل وجامع مانع فلابد له من علوم تحميه وتحرسه من كل أخطار الدنيا ، والجغرافيا أحد العلوم الهامة لحراسة الكيان الإسلامى فى أداء دعوته وحفظ بلاده وصون وطنه ، وهذا العلم تعريف عن كل قطعة من المناطق الإسلامية حتى يلم المسلم بأحوال بلاده ووطنه ، ولا سيما الإسلام يدعو إلى القيام بأداء الرسالة لعامة الناس ، وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن فالإسلام سلام فى رحمة لإنقاذ البشرية من ظلم مقيم واستعمار بغيض كما نراه فى الحروب المتتالية من الصليبية وحرب الصرب القائمة إلى وقتنا الحاضر وغيرها من الحروب الانتقامية ضد الإسلام والمسلمين . فلا بد للمسلمين من مجلس أمن إسلامى يحدد

موقفهم إزاء هذه الأعمال الإجرامية التى تتنافى مع الأديان بل مع الشعور الإنسانى والأمن البشرى ، ومجلس الأمن الإسلامى له قواعده ومطالبه ومكانته .

وعلم الجغرافيا لدى المسلمين مهد الطريق لهم لمعرفة بلاد العالم والخروج من حيز بلادهم الضيقة إلى عالم واسع ، وهذا من رسالة الحج إذ قال الله لنبيه إبراهيم عليه السلام : « وأَذِّنْ فى الناسِ بالحَج يأتوكَ رِجَالًا وعلى كُلِّ ضَامرٍ يَأْتينَ مِنْ كل فَجٍ عميقٍ ليشهدوا مَنافعَ لهم ويذكروا اسمَ اللهِ فى أيامٍ معلومات على ما رزقهم من بَهيمةِ الأنعامِ » (الحج ٢٧-٢٨) .

فهجرة المسلمين من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة انتقال أمة استوفت الشروط بعد اختبار أفرادها من أحسن الناس إيمانا وعقيدة وإسلاما ، واصطفاهم الرسول فردا فردا من أعلى طبقة العرب روحا ونفسا ، وأنفعهم جهادا ودفاعا عن الإسلام ، وأتى بهم من أم القرى إلى مدينة الرسول لتكوين دولة إسلامية بعد أن ألفهم فى أخوة صادقة وفية ، وفى تعاون مالى ودى وصفاء إسلامى وروح كلها تعايش سلمى وضمان اجتماعى وعدالة إنسانية شريفة .

هذه الأمة والدولة معا هما الإسلام فى صورته الحقيقية ، وهى صورة مصغرة لدولة إسلامية كبرى فحدود الإسلام العربية جعلت هذه اللغة لغته الدينية فالإسلام لا يعترف بالعنصرية ، واللغة العربية فى وضعها الطبيعى والسماوى ليست بلغة عنصرية ، ولا سيما العربية فى معناها الوضعى الإيضاح والظهور فى جلاء دون خفاء تتفق والإسلام دين الوضوح الحى المعبر عن حقيقة الأمور . والدعوة الإسلامية جعلت الرسول صلوات الله عليه يتعرض للصين فى قوله « اطلبوا العلم ولو بالصين » ، مهما كان وضع هذا الحديث فإنه يشير إلى المدى الذى يجب أن ينتشر الإسلام إلى المناطق النائية ، فهذا الحديث فتح للجغرافية الإسلامية ، وقد جاء وفد صينى فى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان لمطالبة مساعدة عسكرية يستطيع بها إمبراطور الصين مواجهة الثوار ضد حكمه وسلطانه . قد تكون التجارة من الأمور الهامة ، ولكن لا يمكن الاعتماد عليها فى الدعوة الإسلامية ، وقد تكون سندا ماديا ، ولكن الإسلام رسالة روحية معنوية ، والمعنويات أعلى شأنا من الماديات إذ المعنويات لا تزول مهما عارضتها الماديات ، هذا الذى أبقى الإسلام حيا فى مناطق كثيرة رغم محاولة الاستعمار محوه وإزالته مع طول بقائه فى محاربته قرونا وقرونا بل ومئات القرون .

فعلا اشتهر الجغرافيون الإسلاميون من العرب وغير العرب ، ولهم تاريخ طويل فى الجهاد العلمى المجيد ، وتركوا آثارا خالدة تسجل للإسلام مجدا فاخرا تعتز به فى هذه الأيام الخالدة ، فعلينا الاهتمام بدراسة جغرافية العالم الإسلامى وإعطاء الأهمية الكبرى للبلاد التى تحمل تاريخا إسلاميا بارزا مثل فلسطين وأفغانستان مما يعطى فكرة الحفاظ على التراث الإسلامى ، وعلى شخصيته الحقيقية لمواجهة الاعتداءات والمساعى لطمس معالمه الإسلامية كما فعلت إسرائيل فى المسجد الأقصى لإعادة هيكل سليمان المدعى .

ومما حافظ دائما الكيان الإسلامى فى وحدة قومية وإيجاد أسرة إسلامية متحدة العقيدة والشريعة فى كل حركاتها وسكناتها هو جعل الله الجزيرة العربية مركزا لبيته العظيم ، ومصدرا لظهور رسله وأنبيائه عليهم السلام ومهبطا للأديان الثلاثة العظمى ، هو تلك الإشارة على أهمية الجغرافية الدينية وبالأخص الإسلامية لأن الإسلام هو منبع كل الأديان السماوية من يهودية ومسيحية ، وبجانب هذا كله فهذا الجزء من العالم هو مركزه العالمى إذ يتوسطه كنقطة الارتكاز للكرة الأرضية ، من هنا انتشر الإسلام ، وإلى هنا يتجه المسلمون فى صلواتهم وأداء مناسك حجهم وجمع كلمتهم .

ولانتشار الإسلام عن طريق الجزيرة العربية وقد أعد الله العرب من البداية أصحاب سفن ومواصلات بحرية للانتقال إلى ما وراء بحارهم ، فاشتهروا بالتجارة ، بها تنتقل البضائع من الشرق إلى الغرب ، ولهم رحلة الصيف والشتاء التى ذكرها القرآن الكريم تسجيلا لفائدة التجارة ، وللانتقال من مكان إلى مكان لتوسعة المدارك العلمية ، والخبرة والتجارب الاجتماعية ولهذا وصل العرب إلى الصين وغيرها للبحث عن الحرير والتوابل والبهارات والإفادية ولفتح مصادر الرزق .

من هذه الناحية لم نجد للعرب تاريخا خاصا بهم بل انضووا تحت لواء الإسلام وكانوا قادته، وأصحاب الزعامة لحملها تلك المسئولية الدينية فى الرسالة الإسلامية وفى أداء الأمانة التى ورثوها عن سيد العرب رسول الإسلام سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، والإسلام لا يفرق بين العرب والعجم فهو دين المساواة فالإنسان لديه كأسنان المشط ، والرسول قد قام بالرحلة التجارية كمثال للحياة العملية .

وصلات العرب بالبلاد الأخرى قبل الإسلام كانت صلات فردية ليست ذات أثر فى فكرة ما ، ولكن صلات الإسلام أنشأت أمة واسعة النطاق فى مساحة شاسعة من العالم ، وقال الدكتور يوسف أبو الحجار فى مقاله تحت عنوان مسالك انتشار الإسلام نشر فى صفحة ٣٣ من المجلد الرابع لبحوث المؤتمر الجغرافى الإسلامى الأول لجامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية سنة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ م «فالعالم الإسلامى دنيا فسيحة الأرجاء ، حتى لو قصرنا هذا التعريف على الوحدات السياسية التى يؤلف المسلمون أكثر من نصف سكانها بإجماع التقديرات . فهو يمتد نحو ١٤٠ درجة طولية ، من درجة ١٢٠ الشرقية ، شرقى أندونيسيا حتى درجة ١٨ الغربية حيث سواحل السنغال التى هى أقصى أقطار العالم الإسلامى فى الاتجاه الغربى » .

وهو يمتد نحو ٧٠ درجة عرضية من أعالى نهر الفولجا عند درجة عرض ٦٠ الشمالية حتى درجة عرض ٦ جنوب خط الاستواء حيث جزيرة زنجبار « وتلك مساحة هائلة ، أكثر مثلا من مساحة كل القارة الأفريقية ، وأكثر من مساحة قارتى أوربا وأمريكا الجنوبية مجتمعين ، فهى تبلغ نحو اثنى عشر مليونا من الأميال المربعة ولعلها تصل إلى نحو أربعة عشر مليونا إذا أضفنا إليها المساحة التى تشغلها الأقليات المسلمة فى الدول غير الإسلامية » .

« وفى هذه المساحة يعيش نحو ٨٠٠ مليون مسلم أو يزيدون ، مما يجعل الإسلام يحتل المركز الثانى بعد المسيحية من حيث عدد معتنقى الأديان السماوية » .

ولا شك إسرائيل العدو اللدود للإسلام والمسلمين أخذت تغير الأسماء الإسلامية للبلاد التى استولت عليها فى فلسطين مما جعل أجزاء من تلك البلاد الإسلامية مشوهة الأصل ، وفى ذلك سياسة ماكرة لاسترجاع تلك البلاد بأسمائها الإسرائيلية المصطنعة ولقد لعبت إسرائيل فى هذا الصدد فى المؤتمر المتتالى عقده لتنميط الأسماء الجغرافية وعقد أخيراً بأثينا فى ١٧ أغسطس ١٩٧٧ ، وكان الدكتور عبد الهادى التازى رئيسا للوفد المغربى فيه » .

والعلماء المسلمون قد درسوا تطور الفكر الإسلامى فى فترة كان ازدهار العلوم الإسلامية يضع اهتماما خاصا فى تاريخ علم الجغرافيا ويتدرج أفكاره الرئيسية ، والإسلام فى نفس الوقت قد دعا الأمة الإسلامية إلى التأمل فى

السماوات والأرض ، وإلى النظر فى الكون وإلى الطبيعة التى لعبت دورا فى التغيرات الجوية ، ومن سقوط الأمطار وغير ذلك من الأحوال على حياة الإنسان حتى أمر صيام رمضان برؤية الهلال وكذلك انتهائه ، ودورة الفلك ، كل أولئك داخل فى علم الجغرافيا فشموله على وضع الإنسان فى البحر والبر ، وحياته على أنشطة البحر والبر اللذين عليهما يعتمد الإنسان فى حياته وتنقلاته وجولاته . وعلم الجغرافيا هو الذى وحد المسلمين وهو الذى مهد لهم طريق الوصول إلى أداء فريضة الحج وغير ذلك من الأمور الهامة فى تكوين الوطن الإسلامى الموحد ، وفى نشر فكرة الاتحاد الأخوى .

من هذه الناحية الحساسة غير المسلمون العلوم الجاهلية المقصورة على مطالع النجوم ومضاربها إذ حددوا منازل القمر بين النجوم بثمانية وعشرين منزلا ، وسموها منازل القمر وأطلقوا على كل منزل منها اسما عربيا خالصا ، وأخذوا بأسباب العلوم فى القرون الأولى للهجرة وترجموا تراث القدماء سواء الهنود منهم أو المجوس أو الفرس أو اليونان ، وتوسعوا فى العلوم العملية بدور الإبداع وإظهار مهارتهم العلمية والفنية بالإسهامات الحقيقية فى نشاط الفكر العلمى عامة ، فعلينا أن نقدر تلك الثروة الضخمة ليكون لنا تاريخ علمى نفخر به أمام الحضارة الغربية المتوغلة فى المدنية المعاصرة التى قد طفت على الحضارة الإسلامية لإهمالنا وعدم اهتمامنا وتساهلنا وعدم إظهارنا تلك الحضارة فى مركز علمى إسلامى يضاهى ما لدى الغرب من معاهد عالية تدرس الحضارة القديمة الإسلامية وغير الإسلامية حتى أصبحنا نلتجئ إلى تلك المعاهد للتخصص فى العلوم الإسلامية مما يحط من كرامتنا العلمية والثقافية بل الإسلامية .

ويعتبر كتاب « المسالك والممالك » لابن خرداذبة (٨٢٠ -٩١٣) جغرافى فارسى الأصل ، وهو مصور هام لتعريف صفة الأرض، يرسم هدفا ومنهجا للجغرافية ، ويعتبر أول مصنف فى الجغرافيا الوصفية فى المدرسة الجغرافية الإسلامية ، وابن خرداذبة هو (أبو القاسم عبد الله بن عبد الله بن خرداذبة) شغل وظيفة صاحب البريد بنواحى الجبال بإيران.

ويقول د/ محمد الأمير غلاف فى مقاله تحت عنوان « الجغرافيون المسلمون ودورهم فى تطور الفكر الجغرافى فى الصفحة ١٣٦ من كتاب بحوث المؤتمر الجغرافى الإسلامى الأول بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض المنعقد سنة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م ».

المجلد الثالث : « وتظهر طريقة الاستقصاء فى جمع المادة الجغرافية من مقدمة الجغرافى والمؤرخ إلى العباس أحمد بن يعقوب اليعقوبى لكتابه « البلدان» إذ يقول : « إنى عنيف فى عنفوان شبابى » بعلم أخبار البلدان ومسافة ما بين كل بلد وبلد « لأنى سافرت حديث السن ، واتصلت أسفارى ، ودام تغربى ، فكنت كلما لقيت رجلا من تلك البلدان سألته عن وطنه ومصره ، فإذا ذكر لى محل داره وموضوع قراره سألته عن بلده وزرعه ما هو وسأكتبه من هم من عرب أو عجمُ ... ودياناتهم ومقالاتهم» ...

« ولكى نفهم ما يقصده الجغرافيون المسلمون بالممالك أو البلدان نورد خطة كتاب البلدان هذا . إذ هو يتحدث أولا عن بغداد «وسُر َّمن رأى» لأنهما مدينتا الملك ودار الخلافة . ثم عن إيران وتركستان وأفغانستان . ثم عن غربى وجنوبى الجزيرة العربية ثم العراق الجنوبى والشرقى وشرقى شبه الجزيرة العربية والهند والصين أما الرابع فبيزنطة ومصر والنوبة وشمال أفريقيا » .

ومن أنماط الكتب الجغرافية التى ظهرت فى هذا العصر «كتاب فتوح البلدان للبلازرى» الذى يعتبر بحق قطعة ممتازة فى الجغرافيا التاريخية وهو ذو قيمة كبرى فى التاريخ الإسلامى - وكتابان فى تاريخ مكة أحدهما للأزرقى (المتوفى عام ٢٤٤هـ - ٨٥٨م) والآخر الفاكهى (المتوفى حوالى ٢٧٢هـ - ٨٨٥ م) وينتسب لنفس النمط كتاب تاريخ بغداد لأحمد بن أبى طاهر طبفور (المتوفى عام ٢٨٠هـ - ٨٩٣م) وان كانت ضئيلة الحظ من الجغرافيا وكتاب تاريخ دمشق لأبى عساكر (توفى ٥٧١هـ - ١١٧٦م) .

والقرن الرابع الهجرى يعتبر تاريخيا عصر ازدهار الحضارة الإسلامية وفى نفس الوقت عهد ازدهار الجغرافيا الإسلامية وقد سمى العصر الكلاسيكى للجغرافيا الإسلامية إذ بدأت بالفلك ثم توسعت إلى رحلات وأدى ذلك إلى وجود الجغرافيا الوصفية .

وقد تطورت الجغرافيا الإسلامية إلى ظهور الجغرافيا الاجتماعية التى قادها عبد الرحمن ابن خلدون (١٣٣٢م- ١٤٠٦م)بكتابه «العِبر» المشهور بمقدمة ابن خلدون وفى الواقع الجغرافيا الإسلامية لها أن تفخر بعالم بارز آخر وهو البيرونى (أبو الريحان ٩٧٣م ـ ١٠٤٨م) من أصل فارسى ومن أهم كتبه «الآثار الباقية من القرون الخالية » وهناك بعض علماء مجهولى الأسماء من إخوان الصفا تلك الجمعية السياسية الشيعية ظهرت فى القرن العاشر بالبصرة .

وأبو الحسن المسعودى وذلك المؤرخ الجغرافى الذى نشأ فى بغداد وطاف فارس وكرمان والهند وسيلان والصين ومدغسكر وما وراء النهر وأذربيجان وجرجان والشام وفلسطين ومصر وتوفى سنة ١٩٥٦م وضع فيما سمعه ورآه عشرات المؤلفات وأشهر ما بقى منها «مروج الذهب ومعادن الجوهر » وهو من أشهر جغرافى القرن الرابع الهجرى وهو عربى صرف ونسبه يرجع إلى الصحابى عبد الله بن مسعود وقيل إنه قد زار الصين وأربخيل الملايو .

فغرَّبت حتى لم أجد ذكر مشرق

وشرقت حتى قد نسيت المغاربا

وأحمد بن فضلان له مكانة خاصة لدى الرحالة المسلمين إذ أوفده الخليفة المقتدر بالله بهدايا إلى أمراء بلفار الفلجا وبلاد الترك وطرق أبواب عالم بربرى وعاد إلى بغداد وكتب «رسالة فى الرومى» عن رحلته واهتم بها الغربيون باعتبارها أحد المصادر النادرة الأصلية عن رحلات أجدادهم من البلغار والروس والجزر وبدأت هذة الرحلة باثنين صفر (عام ٣٠٩ هـ - يونيو ٩٢١م) ولكننا لا نعلم متى انتهت . ويقول الدكتور محمد السيد غلاب فى نفس مقاله ص ١٣٩ ما يلى : ويحتفظ باتوت بشذرات عديدة من رحلة طريفة قام بها رحالة أحاط به وبصحبة رحلته كثير من الريب والشكوك ، وهو أبودلف الينبص الخزرجى . وكان أبودلف شاعرا مداحا التحق ببلاط نصر الثانى بن أحمد السامانى (٣٠١- ٣٣١هـ - ٩١٤-٩٤٣ م) وقد انتهز أبودلف فرصة وصول سفارة صينية إلى نجارى فاصطحبها وهى عائدة إلى بلادها ويبدو أن أبادلف كتب ذكرياته عن رحلته بعد عودته من الذاكرة . وخلط بها ما سمع من قصص وأساطير .

«غرب الرحالة العرب ووصلوا إلى أوربا ليس من الشرق فقط ، بل من الغرب أيضا وقد حفظ لنا البكرى الجغرافى الأندلسى (عبد الله) (توفى فى قرطبة ١٠٩٤م) والقزوينى (زكريا ١٢٠٣- ١٢٨٣) كثيرا من مشاهدات الرحالة إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلى الطرطوشى ، وكان عالما أندلسيا يهوديا اشتغل بتجارة الرقيق ، وأخذته رحلاته التجارية إلى جنوب ألمانيا فى القرن الرابع الهجرى (٩٦٥م) وقابل الإمبراطور الألمانى أوتونى مجد برج (Otton) وحفظ لنا معلومات واسعة عن، إمارات الصقالية فى أوربا فى ذلك العصر، ويحدثنا عن أربعة منها ؛ بلغاريا وبولندا والتشيك وإمارة ناكون الاندوريتى كما يورد تفاصيل واقعة عن بعض المدن الساحلية أو القريبة من الساحل بفرنسا وهولندا وألمانيا.

استمرت رحلة المسلمين إلى بلاد مختلفة مما فتح آفاقا واسعة زادت فى معرفة الناس للعالم ومواقع البلاد إلى أن وصلنا إلى آخر الممثلين الكبار للمدرسة الكلاسيكية وهو المقدسى (أبو عبد الله) أكبر جغرافى عرفته البشرية قاطبة ، ولد فى عام ٣٣٥هـ - ٩٤٦-٩٤٧ م، وتوفى نحو سنة ٩٨٥م تجول أكثر البلاد الإسلامية وقام فى سنه الأربعين بتأليف كتاب «أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » (٣٧٥هـ - ٩٨٥-٩٨٦م) ونقله الأوربيون إلى لغاتهم واستفادوا منه ، وهو لم يذكر غير الممالك الإسلامية ولم يتعرض لممالك غير إسلامية لأنه لم يدخلها ولم ير فائدة من ذكرها غير أنه تعرض لمواضع المسلمين فيها .

وفى هذا العصر ذاته برز فى الجغرافيا كأحد العلوم الفلسفية إذ تعرض لها كتاب «إخوان الصفاء وخلال الوفاء » كموسوعة ذات صبغة خاصة وحيدة من نوعها ألّفتها نخبة من المفكرين والعلماء أخفوا أسماءهم وهذا الكتاب يشتمل على علوم مختلفة فى مبادئ الرياضيات والمنطق وعلم النفس والطبيعة والتصوف والتنجيم ، وهو مجموعة من الرسائل مكونة من إحدى وخمسين رسالة وللجغرافيا الرسالة الخامسة .

فهناك البيرونى ، والبكرى فى الأندلس ، والإدريسى فى صقلية ، وكل منهم له أثر استفاد منه الناس عامة من المسلمين وغير المسلمين ، ولناصرى خسرو (٣٩٤-٤٨١ هـ = ١٠٠٣-١٠٨٨م) الذى نشأ فى مدينة مرد ، كتابٌ باللغة الفارسية يعرف باسم « سفرنامه » وهو شاعر اعتنق المذهب الإسماعيلى ، وفى كتابه هذا تناول رحلته إلى مكة المكرمة .

وحمود الكاشغرى قد ترك كتابا باللغة العربية ، وهو سلجوكى ، وعرف هذا الكتاب الوحيد باسم « ديوان لغات الترك » دون فى بغداد بين عامى ٤٦٤ و ٤٦٦ = ١٠٧٢ و ١٠٧٤م ، وهذا الكتاب قد ترك لنا مادة غزيرة عن الشعب التركى فى مراحل تكوينه الأولى ، وتم طبعه أثناء الحرب العالمية الأولى .

وهناك كتاب « طبائع الحيوان » يتناول فى جوهره علم الحيوان بيد أنه تعرض للحديث عن الأصناف البشرية والجغرافيا ، ويمتاز بما تضمنه عن الشرق الأقصى « أى الهند والتبت والصين » .

وفى الأندلس والغرب قد ظهر ثلاثة أعلام ، وهم أبو عبد الله البكرى (توفى فى قرطبة ١٠٩٤ م) أقدم من بقيت مؤلفاتهم لدينا

كأكبر جغرافى أنجبته الأندلس - كما قال المستشرق دوزى (Duzy) - ١٨٢٠ - ١٨٨٤ م الهولندى ، ومدرس اللغة العربية فى كلية ليدن «Leiden» واشتغل فى تواريخ الدول الإسلامية فى الأندلس والمغرب ، ومن أهم مؤلفاته « ملحق وتكملة القواميس العربية » ، ذكر فيها الكلمات التى لم ترد فى المعاجم . ومن مؤلفات البكرى « المسالك والممالك » وكتاب «معجم ماستعجم » والثانى الإدريسى (أبو عبد الله المعروف بالشريف (١٠٩٩ - ١١٥٣ م) ولد فى الأندلس واشتهر بأنه أكثر الجغرافيين المسلمين مكانة بين العلماء المحدثين ، ونسبه يرجع إلى الأدارسة العلويين ولهذا عرف بالشريف الإدريسى .

والإدريسى يختلف سلوكا عن الجغرافيين المسلمين الكلاسكيين حيث لم يقتصر على البلاد الإسلامية فحسب ، ولكنه ألف كتابه وخطط خرائطه وهو فى بالرمو «Palarme» عاصمة صقلية بدعوة من الملك روجر الثانى «Rager II» فاحتوى كتابه على وصف جذاب لأوربا الغربية (فرنسا وسكتلاندا وألمانيا وأيرلندا وسواحل بحر الشمال) .

والبكرى (عبدالله) من أقدم ما لدينا من مؤلفاتهم عن جغرافيى الأندلس وكتابه المعجم « ليس كتابا جغرافيا بل كتاب لغوى ، ولكن اهتم فيه البكرى بشبه الجزيرة العربية على وجه الخصوص ، واستغرق فى ذكر الأسماء المذكورة فى القرآن الكريم والحديث الشريف وقصص المغازى الأولى والشعر الجاهلى .

كان فى الأندلس معاصرا للإدريسى «أبو حامد الغرناطى» ، ولد فى غرناطة عام ٤٧٣ هـ - ١٠٨٠ م ، شغوفاً بالرحلات وزار مصر وصقلية وسردينيا ، وبغداد وبحر قزوين وإيران ، وله كتاب تحت عنوان « تحفة الألباب ونخبة الإعجاب » .

ومن هؤلاء محمد بن أحمد بن جبير الكنانى (١١٤٥ - ١٢١٧ م) . ولد فى بلنسية بالأندلس وتوفى فى الإسكندرية ، درس الفقه والحديث فى شاطبة ، شرب الخمر صدفة فحج تكفيرا ، زار الإسكندرية والقاهرة ومكة والمدينة والكوفة والموصل وحلب ودمشق وعكا وصقلية ثم عاد إلى غرناطة عن طريق قرطاجنة وقد حج عن طريق النيل إلى الصعيد ثم عبر الصحراء إلى عيذاب (مرفأ على ساحل البحر الأحمر) وقد وصف ابن جبير ما رآه فى الإسكندرية ومصر .

ومن جغرافى هذا العصر أبو المكارم أسعد مماتى المصرى توفى فى حلب ٦٠٦ هـ -١٢٠٩م ، وينتمى إلى أسرة قبطية عريقة ، وتولى رئيس ديوان الجيش للملك الناصر بالقاهرة ، اعتنق الإسلام وتولى منصباً كبيراً فى عهد صلاح الدين وخلفائه . له كتاب « قوانين الدواوين » فيه قواعد إدارة مصر فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، وقد فصل نظام الأراضى بمصر ، وبين مساحتها وخراجها ، ويعتبر هذا الكتاب وثيقة هامة فى تاريخ مصر الاقتصادى .

بعد تغيير الوضع السياسى والاجتماعى فى الشرق الأوسط وتبديل النظام الإدارى فى العراق إثر استيلاء المغول على بغداد وتحطيمها للحضارة الإسلامية وتخريبها مكتباتها العلمية والثقافية تحول معمل الإشعاع الفكرى الإسلامى نحو الغرب أى إلى دمشق وحلب وأخيراً تمركز فى القاهرة مما جعل القرنين الهجريين السابع والثامن بروز المجهودات العلمية فى موسوعات عربية كبرى وبالأخص فى مصر ، وكان من قبل ياقوت الحموى قد أقدم على هذا العمل العلمى الجليل بمعجمه، وكفى فخرا أن المعجم يتكون من ثلاثة آلاف وثمانمئة وأربع وتسعين صفحة ، وهو فى واقع الأمر مرجع للجغرافيا فى وصفها المختلف .

وياقوت هذا أى يعقوب الرومى (١١٧٩-١٢٢٩) كان أصله بلاد الروم ، أسر صغيراً إذ ابتاعه تاجر بغدادى يعرف بعسكر الحموى ، علمه وشغله بالأسفار ثم أطلق سراحه فأتم رحلته إلى مدن إيران والشام والعراق ومصر إذ راجع فيها المكتبات فجمع حاصلات علمية وفيرة وضعها فى كتابه « معجم البلدان فى معرفة المدن والقرى فى كل مكان » .

وممن عاصر ياقوت المؤلف موفق الدين عبد اللطيف بن يونس البغدادى (١١٦٢ - ١٢٣١م) وقد ترك معلوماتٍ هامةً عن مصر إذ ولد فى بغداد وأقام فى مصر ، درس الطب والأدب والكيمياء ، وله كتاب صغير تحت عنوان « الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » وقد وُلِد أبو الفداء (أبو الفداء عماد الدين إسماعيل المؤيد ١٢٧٣- ١٣٣١م) بمدينة دمشق ، وهو الأديب الإدارى المحارب إذ اشترك فى عدة حملات ضد الصليبيين ، واستقر أخيرا مع الأيوبيين بمصر ، فعُيِّن حاكما فى حماة ، ومؤلفه المشهور فى الجغرافيا تحت اسم « تقويم البلدان » .

فى عصر المماليك ظهرت موسوعتان إحداهما لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب

البكرى النويرى (٦٧٧-٧٣٢ هـ = ١٢٧٩-١٣٣٢م) والثانية لابن فضل الله العمرى (١٣٠٠ - ١٣٨٤) وكتابه « مسالك الأبصار فى مماليك الأمصار »

والقلقشندى أحمد (١٣٥٥ - ١٤١٨) المنسوب إلى قرية مصرية فى القليوبية المعروفة باسم قلقشنده ، وهو من علماء الأدب العربى ، وقد عرف بكتابه «صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء » ، وفيه مايحتاج المتعلم من معارف عامة منها الجغرافيا ، وعن الأرض وأبعادها والأقاليم السبعة ، والجبال والبحار والجزر والأنهار ، والبحيرات والبلدان المختلفة والمدن وسكانها .

والعلامة المصرى أحمد زكى باشا (المتوفى ١٩٣٤) جمع هذا الكتاب القيم فى واحد وثلاثين جزءا .

ثم ظهر ابن بطوطة (١٣٠٤ -١٣٧٨ م) الرحالة المولود فى طنجة تجول فى العالم فى ثلاث رحلات استغرقت زهاء ٢٩ سنة ، وهو أبو عبدالله محمد بن عبدالله اللوائى الطنجى ، وصل ابن بطوطة إلى إندونيسيا ، وهو ذلك المزواج الذواق . ترك آثاراً من سلالته فى كثير من البلاد . وذات مرة رأى الملك فى منطقة أتشيه يخرج لصلاة الجمعة حافى القدمين متمثلا فى ذلك بالآية الشريفة : ﴿ فاخلع نعليك إنك بالوادِ المقدَّس طوى ﴾ (طه ١٢) .

وهناك رحلات جغرافية قليلة الأثر قام بها بعض الشخصيات لغرض المتعة والترفيه، ولكنهم تركوا شيئا من آثار رحلاتهم هذه ، وذلك مثل الأمير محمد على ولى عهد المملكة المصرية ، وقد زار إندونيسيا وتحدث عنها ، ومما قاله : « عند نزول الإنسان فى أى فندق من الفنادق فإنه يجد على سريره مخدة محشوة طويلة مدورة يحتضنها النائم كمرافقة له تعرف باسم الفتاة الهولندية «Dutch fady» وكأن الهولنديين يرفهون عن الزوار بإعطائهم فرصة التمتع بفتاة هولندية افتخارا بكرمهم وحسن ضيافتهم كما يسمى الغربيون «البامية» للذتها بأصابع المرأة «Lady'S fingers» ما أحلاها من اسم ، وفى الواقع البامية لذيذة وأنا من محبيها - خلاصة القول ، أنى أرى أن موضوع بحثنا أعلام الجغرافيين العرب لايصلح لأن يكون موضوع الحديث بعد أن عرفنا أن الإسلام رفع العرب شأنا وجعلهم فى مقدمة الصفوف الدينية والعلمية والثقافية بل هم أصحاب الفضل فى فتح أبواب العلوم ؛ فلهذا أرى أن الأولى بنا أن ندرس أعلام الجغرافيين الإسلاميين الذين عاشوا فى التاريخ وأغلبهم

من العنصر العربى ومن فطاحل هذا الجنس البشرى الذى اختار الله رسوله من بين صفوفه .

واختصاراً للبحث عن هذا الموضوع فأمامنا دراسة مستفيضة عن الجغرافيين الإسلاميين إذ عقدت جامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية بالرياض مؤتمرا خاصا لدراسة هذا الموضوع تحت عنوان « المؤتمر الجغرافى الإسلامى الأول » فى الفترة من (٢٢ إلى ١٣٩٩/٢/٢٨هـ الموافق من ٢٠ إلى ١٩٧٩/١/٢٦ م) .

وقد استضافت الجامعة نحو مئة وخمسين عالما من علماء الجغرافيا المسلمين ، وفدوا على الرياض من أرجاء العالم ، وألقيتْ بحوثُهم القيمة التى جُمِعتْ فى ثمانية عشر مجلداً . فالأحرى بنا مراجعة ذلك المحصول العلمى ، والمجهود الفكرى ، والإنتاج الجماعى عن التاريخ الإسلامى فى الموضوع الجغرافى ، حتى نختصر الطريق فى الوصول إلى الهدف المنشود الذى نبتغيه ، ويمكن لاختصار الوقت أيضًا أن نكوِّن لجنة من شخصيات أعضائنا أو الأعلام الجغرافيين خارج مجمعنا لبحث هذا الموضوع والخروج منه بنتيجة مرجوة ، ولابأس أن نطلب من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية إتحافنا بتلك الكتب التى تبلغ ثمانية عشر مجلداً ..

الفرنسيون يؤنثون لفظ « القمر » « La Lune» ويُذكِّرون كلمة « الشمس » «Le Soleil»، ولهم فى ذلك فلسفة خاصة لهدوء القمر وثورة الشمس ، ولكن العرب اعتبروا أن القمر يحرس السارى ليلا فى البيداء الموحشة بينما الشمس تحدث تلك الحرارة التى تثير وتدفئ الجسم الهادئ الساكن .

ولكن العرب كالفرنسيين استعملوا هذه الكلمة بحسب معناها المراد ، فيتغازلون بالقمر ، فيقولون « ياقمر ، ياقمر » عند مغازلة المرأة والإعجاب بها .

غير أن هناك مغنية فريدة هى التى استعملت لفظ القمر فى معناه الحقيقى فتقول «يامًّا ، القمر على الباب » .

بعض اقتراحات لغوية

بمراجعة الاستعمالات اللغوية بل بالتأمل فى الناحية الخاصة ببناء الكلمات العربية ولاسيما الوضع الحركى فى النحو وقواعد

الإعراب ، فإنى أرى أن هناك أمورا يجب أن نستفيد منها فى إظهار فلسفة لغوية ولاسيما فيما يتصل بالشريعة الإسلامية فى استعماله للألفاظ ومعانيها فى إظهار الأحكام الفقهية ، بل هناك اصطلاحات لايصلح استعمالها لتعارضها مع حقيقة المعانى التى تحملها وقد تؤدى إلى سوء الأدب بالنظر إلى ارتباطها بالمعانى الحقيقية لها ، وذلك :

١ - الفلسفة اللغوية :

لايمكن أن نترك اللغة العربية بدون أن ننظر إلى فلسفة تركيب كلماتها وما الذى دفع واضعى قواعد النحو إلى تحريك الكلمات حسب وضعها الإعرابى مصورة تحقيق الغرض الحقيقى الذى تؤديه تلك الكلمات فى تركيب الجمل . مثلا يقول النحويون الفاعل مرفوع وعلامة رفعه الضمة وما إلى ذلك .

فبالتأمل نجد فلسفة هذه التسمية ملاحظة الاعتبارات الطبيعة فى المجتمع الإنسانى ، فالفاعل عمدة كما يقولون، وصاحب الشأن فى تركيب الجملة فلمركزه هذا فهو مرفوع، وإذا رآه الناس ضموه احتراما وتبجيلا تقديرا لوضعه الاجتماعى ، والمفعول به عبارة عن شىء واقع عليه الأذى كأنه مضروب ، فإذا هو مضرب مطروح أرضا ، وعلامة هذه الحادثة أثر فى جسمه وهى الفتحة أو الجرح ، وأما المجرور فإنه انجر فانكسر .

والاسم لايكون مجزوما أو ميتا ، بمعنى ليست له مهمة فى الجملة ، فهو متحرك أى له فعل ظاهر فى أداء مهمةٍ ما فى الجملة ، والفعل قد يكون مجزوما لعلة سبب ذلك مثل حروف الجزم التى دخلت عليه فمنعته من الحركة أى منعته من أداء مهمته فمثلا لا تفعل هذا ، ومعناه لاتؤدى هذا الفعل أى منعته من الحركة، وكذلك الأمر .

وإذا استطردنا البحث فوجدنا مثلا علامة التأنيث ، فللمفرد تاء التأنيث المربوطة وفوقها نقطتان بمعنى أن الأنثى إذا كانت منفردة وحيدة فلا يسمح لها الاختلاء بفردها أو الخروج وحيدة، فهى مربوطة وهناك نقطتان تلاحظان تحركاتها ، أما إذا كانت أكثر فعلامتها تاء مفتوحة ولكنْ هناك النقطتان أى العينان اللتان تلاحظان تحركاتهن ، وعدد من النساء إذا خرجن معا لا مانع فى ذلك غير أنهن تحت رقابة دائمة للأثونة الفاتنة .

فهناك نوع آخر من مميزات هذه اللغة من حيث اشتراك كلمات فى مصدر أصلى واحد مثل فرج بسكون الراء والفرج بفتح الراء ، إذ بينهما ترابط روحى فى المعنى ، إذ الفرج بسكون الراء يفرج عن الإنسان همومة وضيقه فى حالات هو فيها مضطر للبحث عن الفرج ، ولهذا قال (رسول الله صلى الله عليه وسلم) « إذا أحدكم أعجبته المرأة فوقصت فى نفسه فليعد إلى امرأته فليواقعها ، فإن ذلك يرد ن نفسه» هذه أمثلة فحسب ، وهناك الكثير من أمور تستحق الملاحظة وآخذ الاعتبار منها ، فأرى لا بد من إبراز هذه الفلسفة اللغوية لإعطاء العربية مميزاتها الخاصة ، ولا سيما الفقهاء قد لاحظوا هذه الأمور فى وضع الأحكام الشرعية فمثلا قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، وإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » فهناك ظهرت فلسفة الإعراب من فاعل ومفعول به والمجرور ، فالفاعل القوى وضعا هو الذى يغير المنكر بيده ، والمفعول به فهو الذى يغيره بلسانه أما المجرور المكسور فلم يستطع تغييره إلا بقلبه ، وقال بعض العلماء : إن الأول هو الحكومة صاحبة السلطة والقوة ، والثانى هم الدعاة الذين لهم الألسن والدعوة والنداء ، وأما الثالث فعامة الشعب الذى لا قوة له ولا حيلة .

٢ - الألقاب :

هناك ألقاب سائدة فى المجتمع تضع أناسا فى مقامات مختلفة وتناديهم بصفات ذات صبغة خاصة مميزة كل منهم عن غيرهم ، وهذه الألقاب أصبحت لاصقة لكل صاحب منصب ومكانة فى الدولة ، اصطلح عليها المجتمع العالمى فى التطور السياسى والدبلوماسى والاجتماعى حتى أصبح لكل منصب لقب خاص له ينادى به ولا يتنازل بل يعاقب من تساهل فيه أو أهمله ، ومن تلك الألقاب : صاحب الجلالة أو صاحبة الجلالة ، صاحب الفخامة ، وصاحب السمو الملكى ، صاحب المعالى ، صاحب السيادة ، صاحب العزة ، وصاحب السماحة ، وصاحب الفضيلة وغير ذلك ، ولم تنفض هذه الألقاب بل تزيد مع مرور الزمن ووجود مناصب جديدة ، ففى الأيام الأخيرة فى مصر مثلا زاد لقبان جديدان هما صاحب المقام الرفيع للنحاس باشا كرئيس الوزراء ورئيس الوفد والأمة معا ، وصاحبة العصمة لزوجه السيدة زينب الوكيل .

هذه الألقاب أصبحت لها مميزات خاصة فى المجتمع ، وهى فى الغالب مأخوذة من الدول الأجنبية ، وبالأخص من الدول الغربية كفرنسا مثلا صاحبة السيادة فى الدبلوماسية ، فمثلا منها فى اللغات الأجنبية وفيرة ، وتستعمل فى المكاتبات والنداءات مثل : (His Majesty. His Royal Highness. His Emminence etc) وغير ذلك من الألقاب المشيرة إلى عدم المساواة وتفرقة عنصرية أخرى للعلماء أو تفرقة طبقية تتنافى مع الإسلام ومع الديمقراطية فى مساواة الجنس البشرى فى حقوقه الإنسانية ومنزلته البشرية .

وهذه الصفات مأخوذة من صفات الله سبحانه وتعالى صاحب الجلالة والإكرام والعزة والعصمة والفخامة والسمو ويجب على المجتمع حامل الرسالة الإسلامية واللغة العربية تحديد موقفه وإظهار رأيه إذ هذه الألقاب لم توجد فى اللغة العربية سواء فى العصر الجاهلى أو فى العصر الإسلامى .

وقد شعرت بعض الدول الإسلامية هذه الأعراض الاجتماعية الاستقراطية فأندونيسيا مثلا عقب الاستقلال ألغت كل هذه الألقاب ، واستعملت كلمة « بونج » (BUNG) بمعنى الأخ لكل أبناء البلاد على حد سواء فيقولون بونج كارنو للرئيس سوكارنو ، وبونج حنا للدكتور حنا وغير ذلك ، وفى مصر كذلك عقب الثورة إذ تقرر استعمال لفظ « السيد » لكل أبناء البلاد دون استثناء وفى الواقع هذا هو الأمر الذى نواجهه فى مخاطبة الدول الأجنبية ، ولكن اذا اتخذنا قرارا فلا أحد يستطيع أن يغير نظامنا السياسى أو الاجتماعى ولا عيب فى ذلك بل فى ذلك حفظا لكياننا وشخصيتنا بل ولغتنا وديننا .

٣ - الكلمات المشتركة :

نجد فى اللغة العربية كلمات مشتركة تعطى معنيين أو ثلاثة ، وقد تؤدى إلى اختلاف فى إعطاء المعنى الحقيقى المراد ، ولا سيما فى الأحكام الشرعية كما نجد فى الفقة الإسلامى مما أدى إلى وجود مذاهب أهمها أربعة مثلا فكلمة « لامس » فى قوله تعالى « إذا لامستم النساء » فهذه الكلمة لها معنيان أى اللمس والجماع وقد اختلف العلماء فى إعطاء المراد من معناها فى الحكم الشرعى ، أى هل اللمس فحسب أو الجماع هو الذى ينقض الوضوء .

هذا الاختلاف أدى إلى وجود أربع جماعات فى مواقيت الصلاة فى الجامع الأزهر ، والسبب

فى ذلك فى اختلاف إعطاء المعنى الحقيقى لهذه الكلمة ، فالحنفى مثلا يقول بعدم بطلان الوضوء عند مس / لمس المرأة ، والشافعى خلاف ذلك . فالشافعى لا يصلى وراء الحنفى اعتقادا بأنه غير متوضئ إذا مس امرأة ما .

وقد توغل المذهب الشافعى فى هذا المعنى حتى قال إذا مس المرء عمودا أملس أثار شهوته بطل وضوؤه ومس المرأة المسنة إن لم يثر الشهوة لا يبطل الوضوء . وفى الواقع لا بد من إزالة هذين المعنيين غير المقيدين فنعطى معنى جامعا ومانعا ولا يخرج عن حقيقة المعنى الأصلى الحقيقى المراد .

فالمعنى هو المس بشهوة ، والجماع مجمع الشهوات أما المس واللمس العادى ففيه نظر ، فطالما لا يثير الشهوة فغير مبطل للوضوء كالتاجر فى السوق أو المار فى الطريق أو غير ذلك . هذا لا سيما فى العصر الحاضر عصر الازدحام والاقتحام والانسجام .

ومثل ذلك كلمة قرء فى قوله تعالى : ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهم ثلاثةَ قروء ﴾ (البقرة ٢٢٨) والقرء تأتى بمعنى الحيض والطهارة معا ، فللمطلقة أو التى توفى زوجها فعليها أن تتربص « أى المدتين » أوفق لها الطهارة أو الحيض وفى الواقع أن لفظ « قرء » يأتى بمعنى « منجما » ولهذا قال بعض اللغويين القرآن مأخوذ من هذا المعنى لأن القرآن نزل منجما . وإذا تمشينا مع هذا المعنى فالقرء يأتى بمعنى الوقت المنجم الذى لصالح المرأة سواء الطهر أو الحيض فلها حق الاختيار للشىء الذى ينفعها أى الانتهاء من العدة لتتزوج من رجل آخر أو البقاء فى العدة لتستمر النفقة عليها .

هذه الأمور وأمثالها تحتاج إلى تحديد موقفنا لتوحيد الصف الإسلامى الذى فرقت المذاهب وحدته ، ولو أن فى الاختلاف رحمة ، ولكن فى الاتحاد قوة .

٤ - الاختلاف فى إبداء الرأى :

أرى بعض العلماء خرجوا عن حدود المنطق فى إعطاء معانى للكلمات الشرعية ، فمثلا كلمة « المطهرون » فى قوله تعالى :

﴿ فى كتاب مكنون لايمسه إلا المطهرون ﴾

وقد قال العلماء المقصود من هذه الكلمة إما الملائكة أو الإنسان المطهر .

أما إعطاء معنى الملائكة لهذه الكلمة فبعيد عن التصور العقلى ، إذ الملائكة مخلوق طاهر من شأنه والقرآن للجن والأنس :

﴿ وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون ﴾ فالمقصود بهذه الكلمة هم المكلفون المأمورون بتلاوة هذا الكتاب الكريم ، ولهذا قال تعالى :

﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ (البقرة ٢٢٢) وقوله سبحانه :

﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المتطهرين ﴾ (التوبة ١٠٨) .

فإعطاء معنى « المطهرون » للملائكة فيه نوع من التكلف ، لأن القرآن خاص بمخلوق الأرض ، وقد نزل من السماء لأمر تكليف بشرى .

فؤاد محمد فخر الدين

عضو المجمع المراسل

من إندونيسيا